كفيفا ، أى مكفوفا إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحالُ وحشة وشذوذا وزراية على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على إشباع شهواته مستهدفا لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لنبّ غيره من السباع عنها .

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الإيمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والإنجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين ـ لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفعة الحياة ـ متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التى ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يَغْبَرُّ لهم وجه الحياة حينا فيبدو أثر ذلك عابسا فى آثارهم ، ثم يجنحون إلى التعزى والإيمان : فملتون فى الإنجليزية مثلا على فرط ما لاقى من خذلان فى حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الايمان متطلبا للعزاء إلى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلبا للترفيه عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ؛ والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال فى مطلب حياته الأسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدرعا متأهبا للجلاد .

وإن يكن هناك مجال للمقابلة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطباغا بالتفاؤل والايمان ، على كثرة ما به من الشكوى ؛ والأدب الإنجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولاسيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ؛ وإنما يبث ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبث الايمان فى النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

٨ ـ ١٤ فكرى أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى ؟

نظرية الدعاة الدرزيين ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــة

تلك هى النظريات والشروح الغريبة التى لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائى كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة فى مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة فى مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة به ، ولكن الدعاة ألفوا فى هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعوتهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة ؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحل الساعة ، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر إلا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم ؛ وفى هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو فى السماء أو فى الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده « وإنه ليراهم من حيث لا يرونه » !

هذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وخمسة عشر عاما ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين فى رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولى الله إمامهم باختياره راضياً عنهم ، حاضرا فى أوساطهم . . » ويكرر الدعاة هذه الاشارة الغامضة إلى مثول الحاكم ورجعته فى رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التى أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم » ، « إن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه » ، « أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » ، وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية

الجوفاء. وخلاصة مزاعمهم فى ذلك هو أنه متى حلت الساعة، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين، ويقصدون إلى مكة فى كتائب جرارة، وفى غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً، ثم يدفعه إلى حمزة بن على فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس؛ ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد «الكلمة»، وهو أحد الحدود الخمسة، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض، ويملكون العالم إلى الأبد، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق. الأولى الموحدون وهم «العقال» أو «العقلاء»، والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة، والرابعة المرتدون وهم «الجهال» (الجهلاء)؛ ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم فى الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر أنحاء الأرض (١)

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة فى سحق أتباع الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته فى رسالته المسماة «النهاية والبلاغ فى التوحيد»، إذ يقول: «وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين، ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين؛ والذى يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون، ويلبسوا الغيار وهم كارهون»

تلك هى نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم فى غيبة الحاكم وفى رجعته، وهى نظرية فى منتهى الاغراق والجرأة؛ بيد أنه لاريب فى سخفها؛ وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم فى مصر، ملاذا لهم فى الشام، فوجهوا اليها أنظارهم. وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك، وما زالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا فى نظريتهم الجديدة؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هى فكرة بعض غلاة الشيعة فى المهدى المنتظر؛ ومنذ عصر على بن أبى طالب تتبوأ هذه الأسطورة مكانها؛ ويزعم هؤلاء الغلاة، وهم الرافضة، أن عليا لم يمت، ولكنه حى غائب عن أعين الناس مستقر فى السحاب، صوته الرعد، والبرق صوته؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول فى ابنه محمد بن الحنفية، وأنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الامام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكرى (وهو أيضا من ولد على) وأنه لم يمت، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفيا الى آخر الزمان، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (١)

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الاسطورة القديمة؛ وقد كانت هذه الأسطورة، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة، وما يكتنفها من الرموز والغموض، مبعث الخفاء دائما؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع فى المجتمعات الساذجة المؤمنة؛ وكان مبعثا لاكثر من دعوة بالنبوة والامامة؛ بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها؛ أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء فى تأييد دعوتهم، وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذى اختفى ليعود حين تحين الساعة، والذى «يرى ولا يرى»

على أن هناك نقطة غامضة فى موقف الدعاة ازاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بان الحاكم اختفى ولم يقتل؛ ذلك هو الدور الذى يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة فى هذا الاختفاء ذاته. فهل للدعاة يد ما فى هذا الاختفاء؟ وهل دبروه أو اشتركوا فى تدبيره؟ أليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بان يختفى تقوية للدعوة، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا فى اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا فى تدبيرها واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم، لكى يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذى أسلفنا؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن فى مثل هذا الموطن، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الألوهية البشرية، وسفكوا فى سبيلها دماء الأبرياء؛ بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام

(١) لخصنا هذه الشروح الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم نعرف مؤلفه وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م

(١) ابن خلدون — المقدمة ص ١٦٥

المطبق ، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء ، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة ، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً .

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها إلى دوائر البحث الحديث . فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم ، ويعلق عليها بما يأتى :

« أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل ، فهو حديث خرافة ، والواقع أن مصيره لم يعرف قط . وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته ، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر . فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو « الناطق » حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الامام أو المهدى ؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم فى عقائد الدوز » (١)

أما نحن فما زلنا نرجح فكرة المؤامرة والجريمة : وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك ، أم من تدبير ابن دواس ، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم ، وسواء أكان الذى ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس ، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه : أم آخرون لم يعرفوا : وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هى التى أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة ، فأن ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة ، يرجح فى نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا

وليس من المستحيل أيضا ، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت فى نفسه : بيد أن هذا الفرض يبدو فى نظرنا من الضعف والاغراق بحيث لا نجد له موضعاً من التاريخ .

* * *

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بامر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله ، أعنى بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصة ذلك المشعوذ الذى تسمى « بأبى العرب » وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك . بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع كادت أن تحدث فتنة حقيقية ؛ ففى رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) فى أوائل عهد المستنصر ، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى « سكين » كان يشبه الحاكم فى بعض ملامحه ، وادعى أنه الحاكم ، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته ؛ والظاهر أنه كان من عصبة الدعاة السريين ، وأن الدعاة أرادوا بدفعه إلى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التى خمدت ، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به فى رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية ؛ فالتف حوله فل الملاحدة ، من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد فى هذه الخرافة ؛ وفى ظهر يوم سار سكين وأصحابه إلى القاهرة وقصدوا إلى القصر الكبير ، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم قد عاد من غيبته ، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا فى الدعى فقبضوا عليه ، وحملوا على صحبه ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر ، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون ، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة (١)

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها ، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر . ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته إلا فى الشام حيث استقرت الدعوة فى بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا .

(النقل ممنوع قطعاً — تم البحث)

محمد عبد الله عنان

(1) Von Muller : Der Islam I. P. 633

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٧ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مع المتنبى

للدكتور طه حسين بك

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع هـــذا الكتاب القيم ويقع فى جزأين كبيرين وثمنه ثلاثون قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التاليف والترجمة والنشر ٩ شارع الكرداسى ومن المكاتب الشهيرة